جهود المعمار سنان في مكة والمدينة

د. محمد حرب

كلمة «معمار» في اللغة التركية تعني المهندس المعماري وتعني البَنَّاء، وهي كلمة شائعة الاستخدام. والمعمار سنان يُعد من أبرز الذين كونتهم الثقافة الإسلامية العثمانية، وكان كبير المعماريين في الدولة العثمانية في عهده. ولد عام ١٤٩٠م وعمر مايقرب القرن إذ توفى إلى رحمة ربه عام١٥٨٨م. وعاصر عهود خمسة سلاطين عثمانيين هم: بايزيد الثاني، وسليم الأول فاتح مصر والشام، وسليمان القانوني، وسليم الثاني بن سليمان القانوني، ومراد الثالث(١).

وهناك اختلاف حول أصل سنان لكن الثابت إسلامه ومكان مولده وتاريخه فقد كان من ضمن الفتيان النصارى الذين جندوا في الجيش العثماني (الدَّوْشِيْرقه) وأسلم عندما كان في الثالثة والعشرين من عمره، فتلقى تعليمًا فنيًا وعسكريًا عثمانيًا.

وأتيحت الفرصة لسنان للاطلاع على تراث الشعوب الأخرى غير العثمانيين فشاهد آثار البيزنطيين في العاصمة العثمانية وشاهد آثار السلاجقة وفنونهم المعمارية في الأناضول ولما اشترك سنان في الحروب العثمانية شرقًا وغربًا عمقت تجربته الفنية أيضاً فهو قد اشترك في موقعة چالديران ١٥١٤م ضد الإيرانيين. ودخل العثمانيون العاصمة الإيرانية وقتها وهي «تبريز» فأثارت مبانيها المعمارية الصفوية اهتمام سنان لخصائص الفن الإيراني. ورافق الجيوش العثمانية في دخولها حلب ودمشق والقاهرة في حملة السلطان سليم على الشام ومصر ، وانتبه سنان إلى الطرز المعمارية العربية والمملوكية، وتجول كثيراً بين أهرامات الفراعنة في مصر ، واشترك في الفتح العثماني لجزيرة رودس. وهناك شاهد في عهد السلطان سليمان القانوني روائع المعمار اليوناني واشترك في فتح العثمانيين لبودابست عاصمة المجر ، فشاهد الفنون المجرية العثمانية، وفي بودابست بالذات كان سنان يتجول في الكنائس التي حولها العثمانيون إلى مساجد وتأمل فيها كثيراً. واشترك في حملة السلطان سليمان القانوني على العراق سنة١٥٣٤م ، فأثرى سنان تجربته الفنية باطلاعه على الإبداع المعماري في بغداد، كما رافق الأسطول العثماني في حملاته البحرية على السواحل الإيطالية(٢).

وفي مخطوط «تذكرة الأبنية» - وهو كتاب أملاه المعمار سنان على صديقه النقاش «ساعي مصطفى چلبي» - بيان بأعمال سنان، وتبلغ (٤٤١) عملاً تحت إشرافه وتخطيطه موزعة في مختلف أرجاء الدولة العثمانية، وكذلك في تحفة المعماريين له أيضاً.

وتتوزع أعمال سنان بين الجوامع والكليات - والكلية في المعمار العثماني تعني مجموعة المنشآت الخيرية والمدارس التي تحيط بالجامع - وسدود المياه والحمامات وبيوت القوافل والجسور والطرق وسبل المياه والأضرحة.

وأشهر أعمال المعمارسنان جامع شهرزاده وجامع السليمانية في إستانبول وجامع أدرنه – قمة الفن المعماري الإسلامي – في أدرنة.

وقد أقيم في البلاد العربية تحت إشراف المعمار سنان تخطيط مايقرب من ٢١ عملاً موزعة بين السعودية وفلسطين وسوريا والعراق.

وهذا المقال محاولة لتقصى ما عمل في مكة المكرمة والمدينة المنورة تحت إشراف المعمار سنان وتخطيطه(٣).

آثاره في المدينتين المقدستين

أولاً : في مكة المكرمة

١ – التعميرات العامة :

أمر السلطان العثماني سليمان بن سليم المعروف بالسلطان سليمان القانوني في عام ٩٥١هـ (١٥٤٤/١٥٤٥هـ) بتعمير المطاف بالرخام المرمر(٤) وأرسل إلى الحرم المدني منبراً مصنوعاً من الرخام المرمر أيضاً(٥)، عليه الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾(٦) كما أمر السلطان القانوني بمد مكة المكرمة بالماء عن طريق عين ماء أطلق عليها «العين» وأنفق في هذا – عام ٩٦٧هـ، ١٥٥٩م/١٥٦٠م – مئة ألف ذهب(٧).

ولما أصابت الحرائق والسيول المسجد الحرام بأضرار بالغة، أسرع السلطان سليم الثاني ابن السلطان سليمان القانوني، بإصدار الأمر، إلى المعمار سنان، بتعمير الحرم المكّي تعميراً كلياً. وتاريخ هذا الأمر (إرادة سَنَيَّة) هو ٩٧٩هـ/١٥٧١م واستمر العمل بموجبها حتى عام ٩٩٥هـ/١٥٨٦م يعني أربع عشرة سنة كاملة. ومن الأحكام التي وردت في هذه الإرادة السنية: هدم القباب والأسقف المصنوعة من الخشب ليحل محلها أعمدة من الرخام المرمر وإنشاء قباب على هذه الأعمدة وأن تأتي هذه الأعمدة الرخامية من مصر، وكان واليها

العثماني هو سنان باشا. وقد انتدب هذا الباشا لهذا الأمر الأمير المصري أحمد بك. وكانت دائرة الحرم المكي محاطة بقباب مقامه على ثلاثة خطوط وأربعة جدران في شكل شبه مستطيل. وكان طول الحرم الشريف من باب السلام - في الجهة الشرقية - حتى باب العمرة - في الجهة الغربية - ٤٠٠ (أرشون) ذراع أما العرض فيبلغ ٣٦٠ (أرشونًا) ذراعًا، ويبدأ من باب الصفا الواقع في الجهة الجنوبية من الحرم حتى باب الزيادة الموجود في الطرف الشمالي. تحوي هذه الدائرة أربعين بابًا وسبع مآذن و٥٠٠ قبة وكان الحرم المكي بدون الميدان المحيط بالكعبة يستوعب ١٥٠,٠٠٠ حاج تحت قبابه. وكانت كل من الأرض الرملية وأطراف الكعبة، والمدارس تستوعب ١٥,٠٠٠ حاجًا؛ وعلى ذلك فيتسع الحرم الملكي في ذلك لـ ٣٠٠,٠٠٠ من المصلين.

وفي هذه الفترة تم توسيع فناء الحرم وزين داخل القباب بخطوط ذهبية ووضعت في الفناء أسطوانات رخامية ملونة لتوفير الضوء. وعمرت المآذن وأقيمت درجات على الأبواب لحماية المسجد الحرام من مياه السيول حيث إن المسجد يقع في منخفض هو من أكثر وديان مكة انخفاضًا(٨).

وقد احتفظ المسجد الحرام في مكة المكرمة بشكله هذا الذي صممه له المعمار سنان طوال أربعة قرون متواصلة. تخللها بعض التعميرات هنا وهناك. في عام ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م عندما بدأ مشروع توسعة المسجد الحرام على عهد الملك خالد ابن عبدالعزيز آل سعود - يرحمه الله - وقد روعي في مشروع الملك خالد الاحتفاظ بعمل المعمار سنان، وكانت الأقسام الجديدة المزادة فيه تقع خارج الأروقة العثمانية القديمة وأحاطت بها(٩).

وتذكر تحفة المعماريين في رصدها لأعمال المعمار سنان في بابها الأول، عبارة ترميم الكعبة المعظمة في مكة بناء على الأمر السلطاني الصادر إلى والي مصر علي باشا، فقد أرسل رئيس المعماريين في مصر - في ذلك الوقت - وهو

قرا مصطفى، إلى مكة، وتم ترميم الأماكن المطلوب ترميمها في الكعبة المعظمة(١٠).

وكذلك يذكر المصدر نفسه مسألة: ترميم الكعبة المعظمة في عهد السلطان مرادخان(١١).

٢ - مدرسة السلطان سليمان خان بمكة المكرمة :

تلاصق هذه المدرسة، المسجد الحرام، وباسمها يسمى واحد من الأبواب التسعة عشر من المسجد، وسميت مئذنة من المآذن السبع بها - على ما يذكر المكي(١٢)، وعمل فيها أبواب أربعة لكل مذهب من المذاهب الأربعة باب للمفتين به، وبنى قاعة درس واسعة، وكان من شروط وقف هذه المدرسة أن يكون لكل خمسة عشر طالباً معيد واحد ومدرس واحد(١٣).

٣ - مطعم «خاصكى سلطان» الخيري:

وقد ورد اسم هذا المطعم - والمطعم الخيري في اللغة التركية هو «عمارت» في رحلة اوليا جلبي(١٤) ورغم أن المهندسان بولند ونهال أولوانكين قد ذكرا عبارة: «وليست لدينا معلومات قط عن مكانها ولا الوقت الذي هدمت فيه»(١٥) إلا أن محمد الأمين المكي يذكر لنا معلومات أخرى عنه فيقول إنها تطعم آلاف الفقراء من الحجاج وكذلك يطعم الذي لاعائل لهم، والمرضى(١٦) ويذكره المعمار سنان في الباب الرابع من تحفة المعماريين: «في بيان عدد المطاعم الخيرية»، في عبارة وجيزة للغاية هي: «المطعم الخيري الذي أقامته (خاصكى سلطان) - عليها رحمة الله - في الكعبة المعظمة في مكة»(١٧).

٤ - حمام السلطان سليمان :

وهو مازال قائماً في مكة المكرمة، وهو في لسان العامة معروف باسم «حمام النبي» ويذكر أيضاً باسم حمام القشاشية ويذكره «أوليا چلبي» خطأً باسم حمام

فاتح اليمن سنان باشا. وقد قام المهندسان التركيان أولوانكين بترميمه عام ١٩٨٤ ميلادية ويذكران - نقلاً عن بعض السعوديين المحيطين بالحمام - أنه كانت له لوحة نقش تذكارية تحمل تاريخ ٩٧٠هـ/١٥٦٢م، ويذكر هذان المهندسان أن بَطُل الآن استخدام الحمام، ويستخدم الآن استخدامات عدة، مصرف ودكان ومخزن، وهو يحمل في شكله الطابع التركي(١٨).

٥ -حمام صَقُوللو محمد باشا :

وسُمّي بحمَّام العمرة لأنه قريب من باب العمرة في المسجد، وقد هدم أثناء توسعة الملك خالد عام سنة ١٩٧٥م.(١٩)

٦ - مدرسة صقوللو باشا :

وأقامها الصدر العثماني الأسبق صقوللو محمد باشا وذكر المكي أن الدراسة كانت قائمة فيها(٢٠).

٧ - مدرسة داود باشا :

ذكرها المكي أيضاً : وقال إنها على عهد السلطان سليمان القانوني وبإدارة المعمار سنان وأنها موجودة ومعمورة بالعلم وطلابه(٢١).

٨ - رباط الخيل وعين ماء له :

وهو الرباط المشهور باسم الهنود، بجانب مدخله عين ماء. والرباط مكون من طابقين وحوش مركزي على امتدادين في كل امتداد غرف متجاورة. والغرف التي في الدور الأرضي ناحية الشارع مستخدمة دكاكين. على بابه الآن كتابة هي:

لله ما أبهـا رباطا قد نشأ   عمرت به أم القرا بلد الغفور
قد شاده الماس اغا ابن الخدا   بخش على خان الذي رج الشكور
لله أوقفه وقال لمبطل   الرب ان ابطلت ارخ إلى غيور

وصـــــلاة رب على النبي وآلـه ... مـا غنت الورق ساحات القصور
وعلى الصحاب وتابعيهم مـاشجت ... قمـرية سحرا بأفنان الوكور(٢٢)

وقد رقم الرباط المهندسان ألوانكين عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

ثانيًا : في المدينة المنورة

١ - الأعمال العامة :

كان السلطان سليمان القانوني قد أمر بتجديد سور المدينة المنورة والقلاع بها، ووضع في ذلك لوحة نقش تذكارية عليها آية : ﴿مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾(٢٣)، وأنشأ أثناء هذا، في السور المذكور، أربعة أبواب هي: الباب الشامي - الباب المصري - الباب الصغير -باب البقيع(٢٤).

ثم قامت عمارة في الحرم المدني في عهد القانوني أيضًا وتناولت باب الرحمة وباب النساء حيث أقيم على جانبيه برجان من خارج المسجد لتقويته وتدعيمه. وهدم الجدار الغربي وأعيد بناؤه مع باب الرحمة. وأما الجدار الشرقي فقد عملت فيه بعض الإصلاحات والترميمات من أسفله فقط، وهدمت المنارة الشمالية الشرقية (السنجارية) وأقيمت مكانها المئذنة السليمانية وكان عمق أساسها ثلاثة عشر ذراعًا بذراع العمل وهو يساوي ذراعًا وثلث من ذراع الآدمي تقريبًا حيث يبلغ طوله ٥٦,٦سم أي أن عمق الأساس يساوي ٨,٥٣م أما العرض فسبعة أذرع أي أربعة أمتار تقريبًا، وكتب على باب الرحمة وباب النساء تاريخ بنائهما واسم السلطان سليمان بن سليم. كذلك عملت أعمال البياض للجدران والأسطوانات وكُتب اسم السلطان على السقف المجاور للجدار الغربي. وأرسل السلطان «الأهلّه» توضع أحدها على القبة في تاسع عشر شوال سنة ٩٤٦هـ ومعه خمسة أهله لكل منارة هلال وهلال للمنبر. وهذه الأهلّة من النحاس المطلي بالذهب وطلاء الأهلة ذهب كلّف ١٨٠٠ ذهب(٢٥).

وأرسل السلطان سليمان القانوني، إلى المسجد النبوي في المدينة المنورة منبراً مصنوعاً من الرخام المرمر عام ٦٥٦هـ وعليه آية (أنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم)(٢٦).

وكان المهندس المعماري المباشر هو علي بن تبك، أما الإشراف فقد كان لتاج الدين الخضيري. واحضرا معهما من مصر لوازم العمارة ونفقاتها(٢٧).

ومع هذه العمارة تم ترميم الروضة الشريفة وعُملت وزرة على الحجرة النبوية وأصلح رصاص القبة على القبر النبوي(٢٨).

وأنشا السلطان سليمان المحراب السليماني في الحرم النبوي باسمه(٢٩).

٢ – حمام صَقُوللَو محمد باشا :

ويقع في حي الأغوات ويعرف أيضاً باسم حَمام طيبة أو حمام يثرب وحَدَّث أهل المدينة، المهندسَيْن أولوانكين بأن للحمام لوحة تذكارية تحمل تاريخ ١٢٥٦هـ = ١٨٤٠م ويُرجح أن يكون هذا التاريخ تاريخ تجديد وتعمير وليس تاريخ بناء(٣٠)، لأن المعمار سنان قد ذكره في تحفة المعماريين في الباب العاشر في بيان الحمامات(٣١).

وكان هذا الحَمام مستخدماً حتي عام ١٩٨٦م. وفي ذلك العام هُدم حي الأغوات حتي تتسع جوانب المسجد النبوي لزوم توسعته، وبالتالي هُدم الحمام(٣٢).

٣ – مطعم خُرَّم سلطان الخيري :

وليست لدينا معلومات عنه إلاّ ماذكره الرحالة أولياچلبى في قوله: ومطعم خاصكى سلطان (خُرَّم سلطان) الخيري. ويوزع فيه الطعام ليلاً ونهاراً لكل شخص من الأكل ثلاث مغارف، ولحم خرفان، وأرز، وزَرْدَه، وعاشوراء(٣٣).

● واجهة رباط الخيل ●

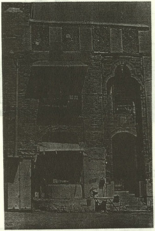

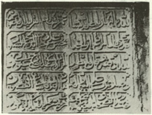

النقش التذكاري في رباط الخيل

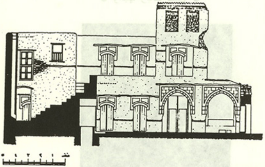

رباط الخيل : مقطع (نقلاً عن ألوانكين)

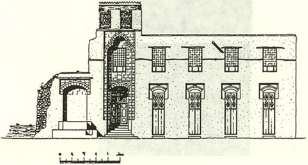

رباط الخيل : الجهة (نقلاً عن أولوانكين)

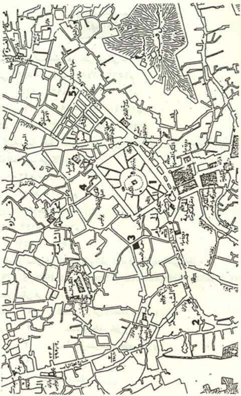

خريطة مصرية من عام ١٩٤٧م ويظهر فيها:

١ – المسجد الحرام.
٢ – رباط الخيل.
٣ – حمام صُقوللو محمد باشا (حمام العمرة).
٤ – مدرسة السلطان سليمان خان.
٥ – حمام السلطان خان (حمام القشاشية).

الهوامش

١ – سنوات حكم هؤلاء السلاطين هي على التوالي كالآتي :

بايزيد الثاني	٨٨٦ – ٩١٨هـ = ١٤٨١ – ١٥١٢م
سليم الأول	٩١٨ – ٩٢٦هـ = ١٥١٢ – ١٥٢٠م
سليمان القانوني	٩٧٤ – ٩٨٢هـ = ١٥٦٦ – ١٥٧٤م
مراد الثالث	٩٨٢ – ١٠٠٣هـ = ١٥٧٤ – ١٥٩٥م

وفي معنى كلمة معمار انظر شمس الدين سامي، قاموس تركي، درسعادت ١٣١٧هـ.

٢– تواريخ هذه الحروب هي كالآتي :

چالديران	٩٢٠هـ = ١٥١٦م
مرج دابق	٩٢٣هـ = ١٥١٧م
فتح رودس	٩٢٨هـ = ١٥٢٢م
فتح المجر	٩٣٢هـ = ١٥٢٦م
فتح بغداد	٩٤١هـ = ١٥٣٤م

وعن حياة المعمار سنان في العسكرية وتأثير ذلك في تكوينه الفني انظر ،

Okray Aslanapa, Osmanli Deuri Mimarisi, Ist. 1986, S. 178.

٣ – أعمال المعمار سنان في البلاد العربية :

مكة المكرمة	٨	ثلاث مدارس ومطعم خيري ورباط
المدينة المنورة	٢	حمام ومطعم خيري
الفرس	٣	جامع ومدرسة ومطعم خيري
البصرة	١	جامع
دمشق	٢	جامع ومدرسة
حلب	٢	جامعان
طريق حلب	٦	قصر وضريح وتكية وجامع ومدرسة وحمام

انظر محمد حرب؛ العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص: ٢٢٨، دار القلم دمشق ١٤٠٩ – ١٩٨٩م.

٤ – محمد الأمين المكي، خلفاي عظام عثمانية حضراتك حرمين شريفينده كي آثار مبروره ومشكوره هما يوتلرندن باحث تاريخي برآثر ص: ٢٥ مطبعة عثمانية، درسعادت ١٣١٨هـ.

٥ – المرجع السابق نفسه ص: ٢٥ أيضاً.

٦ – «النمل» آية / ٣٠.

٧ – المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

٨ – Nihal Uluengin ve Bulent Uluengin, Mimâr Sinân Mekke ve Menedeki Eserli s. 345-349

Mimar Sinan Donemi Turk Mimari ve Sanati, Turkiye Is Bankasi Kutur Yayinlare Istanbul, 1988.

٩ – والمكي ص: ٢٩ – ٣٠ المرجع السابق وصفحاته نفسها.

١٠- Zeki Sonmez, Mimar Sinan ile ilgiliTarihi Yazmalar - Beleger, s. 82, Mimár Sinan Universitesi Yayunlar, Istanbul 1988.

١١- المرجع نفسه ص: ٨٣.

١٢- محمد الأمين المكي، المرجع السابق ص: ٢٧.

١٣- المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها. انظر أيضاً زكي سوغز – تحفة المعماريين وهو مرجع سبق وروده حيث ذكر سنان أن من أعماله في مكة: مدرسة السلطان سليمان في مكة المكرمة في الباب الثالث من أعماله الذي أسماه: المدارس ودور الحديث ودور القراء، ص: ٨٧.

١٤- Evliya Celebi, Seyahatnâme, Zuhurî Danismans s.50 c.14, Zuhurî DanismanYayunemi, Istanbul 1971.

١٥- Uluenginler المرجع السابق بصفحاته نفسها.

١٦- محمد الأمين المكي : المرجع السابق نفسه ص: ٢٨.

١٧- زكي سوغز، مرجع سبق ذكره في تحفة المعماريين الباب الرابع في بيان عددالمطاعم الخيرية.

١٨- نقلتُ هذه العبارة من المهندسَيْن التركيين أولوانكلين في مقالهما المذكور سابقًا بصفحاته المشار إليها نفسها.

١٩- يذكره المعمار سنان في الجزء العاشر من تحفة المعماريين في زكي سوغز ص: ٨٢ والذي ذكر هدمه المهندسان أولو أنكين في مقالهما القصير السابق ذكره، والذي أفدنا من الصورة الواردة به والتي أخذنا بعضها هنا.

٢٠- محمد الأمين المكي، المرجع السابق ص: ٢٧.

٢١- المرجع السابق في الصفحة نفسها.

٢٢- أولو أنكين، ٣٤٧ - ٣٤٨. وذكَرَها المعمار سنان في تحفة المعماريين كما يلي:

«خان للقوافل وعين مائها بجانب عين ماء عرفات الفائض البركات في الكعبة المعظمة في مكة»، انظر زكي سوغز ص: ٩٤.

٢٣- الآية ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. النمل/٣٠.

٢٤- المكي ٢٨.

٢٥- محمد السيد الوكيل (الدكتور) المسجد النبوي عبر التاريخ ص: ١٥٧ دار المجتمع، المدينة المنورة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

٢٦- المكي ص٢٥؛ والآية في النمل/٣٠.

٢٧- الوكيل ص: ١٥٧.

٢٨- الوكيل ص: ١٥٨.

٢٩- المكي ص: ٢٨.

٣٠- أولوأنكين ص: ٣٤٨.

٣١- زكي سوغز، ص: ٩٢.

٣٢- أولو أنكين ص: ٣٤٨.

٣٣- أوليا چلبي الجزء ١٣، ص: ٤٠٣.

* * *

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : باللغة العربية :

١ - محمد السيد الوكيل (دكتور) المسجد النبوي عبر التاريخ، دار المجتمع للنشر والتوزيع. المدينة المنورة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

٢ - محمد حرب (دكتور) العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

ثانيًا : بالعثمانية :

١ - محمد الأمين المكي : خلفاي عظام عثمانية حضراتنك حرمين شريفينده كي آثار مبروره ومشكورة هما يونلرندن باحث تاريخي برآثردر. درسعادت مطبعة عثمانية ١٣١٨.

ثالثًا : باللغة التركية :

1- Evliya Celebi, Seyahatname, Zuhuri Danisma, Danisman Yayunevi, Istanbul 1971.

2- Oktay Aslanapa, Osmanli Deuri Mimarisi, Istanbul 1986.

3- Zeki Sonmez, Mimar Sinan Donemi Türk Mimarligi ve Senati, Türkiye Is Bankasi, Istanbul 1988.

4. Zeki Sonmez, Mimar Siunan Universitesi Yayin Lari - Matbaasi, Istanbul 1988.

○ ○ ○ ○ ○